مولايَ قد قَصُرَتْ بي نهضتي كِبراً ... فما عليَّ بشكوى فاقةٍ حَرَجُ
يا مُحْسِناً طَرَدَتْ آلاؤه كرماً ... ما في فؤادي من اللأواء يعتلجُ
طيِّبْ بقيةَ عُمْري بالتعهُّد لي ... يا مَنْ له طيبُ ذِكْرٍ نَشْرُهُ أَرِجُ
فإنَّ من جاوز العُمْرين قد خَرِبَتْ ... بالعجز منه أعالي القَصر والأَزَجُ
ففيم تخدَعُني الدُّنيا بزينتها ... والحَيْنُ قد حان والأحبابُ قد دَرَجوا[1]

وتوفي في هذه السنة، وقيل: سادس وعشرين رمضان سنة ثمانٍ وخمسين[2]، ودفن بمقبرة معروف الكرخي.

[فصل، وفيها توفي

يوسف بن مكي، أبو الحجاج الحارثي[3]

الشَّافعي، إمام جامع دمشق بعد أبي محمد بن طاوس.

كان صالحاً، ورعاً، لا يأخذ على الإمامة أجرة، وتوفي بدمشق، سمع ببغداد ابن الطُّيوري وطبقته، وروى عنه أبو الحسن السُّلمي[4]، والحافظ ابن عساكر وغيرهما، وكان ثقة][5].

السَّنة السَّابعة والخمسُون وخمسُ مِئَة

في رجب ذكر يوسف الدِّمَشْقي الدَّرس في النِّظامية، وخُلِعَ عليه، وصُرِفَ ابن النِّظام بسبب تزويجه امرأة، عَقَدَ العَقْدَ عليها فقيه يقال له الأَشْتري سِرًّا، فأُدِّب الفقيه بباب النّوبي، وكانت المرأةُ قد ادَّعت أنه تزوَّجها وأنكر، ثم اعترف، فَعُزِلَ عن النِّظامية، وأُلزم بيته.

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٧٨-٢٨١.

(٢) وهو ما ذكرته مصادر ترجمته.

(٣) له ترجمة في «مختصر ابن عساكر»: ٢٨/ ٩٣-٩٤ (اختصرته سكينة الشهابي على نهج ابن منظور).

(٤) كذا، وفي «مختصر ابن عساكر»: وتفقه مدة طويلة عند الفقيه أبي الحسن السلمي.

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وفيها تكاملتِ المدرسةُ التي بناها الوزير ابن هُبيرة بباب البَصرة، ورتَّب بها الفقهاء، ودرَّس بها أبو الحسن البَرَانْدِسي الحَنْبَلي[١]، ثم خربت بعد الوزير، وذهبت أوقافها، وبها دُفنَ الوزير.

وفيها حاصر نور الدين [محمود بن زنكي][٢] حِصن حارم، واجتمع الفرنج، وراسلوه، ولاطفوه، وكانوا خَلْقاً عظيماً، فرجع إلى حلب، وكان معه مُؤَيَّد الدِّين أُسامة بن مُرْشد بن منقذ [الذي أخرجه عمه من شيزر][٢]، فنزل بدار إلى جانبها مسجد، وكان قد نزل بها عام أَوَّل، وحَجَّ، ثم عاد، فدخل المسجد بعد عوده من الغَزَاة، فكتَبَ على [حائط المسجد أبياتاً لنفسه، وهي][٣]: [من الطويل]

لك الحمدُ يا مولاي كم لكَ مِنَّةٍ ... عليَّ وفَضْلٍ لا يحيطُ به شُكْري
نزلتُ بهذا المسجد العامَ قافلاً ... من الغزو موفورَ النَّصيب من الأَجْرِ
ومنه رَحَلْتُ العيْسَ في عاميَ الذي ... مضى نحو بيتِ الله والركن والحِجْرِ
فأدَّيْتُ مفروضي وأسقطتُ ثِقْلَ ما ... تحمَّلْتُ من وِزْرِ الشَّبيبة عن ظَهْرِي[٤]

وحجَّ النَّاسُ من العراق، ووقفوا بعرفة، فلما نزلوا الخَيْف خرجَ إليهم عبيد مكَّة فنهبوهم، فرحلوا إلى المدينة، ولم يَطُفْ أحد بالبيتِ، ولم يَسْعَ [خوفاً من العبيد][٢].

[وفيها توفي

خُطْلُخ بن عبد الله[٥]

أبو محمد، الأتابكي، الطُّغْتكيني الحنفي، ويسمى بعبد الهادي.

---

(١) هو علي بن محمد بن علي البراندسي، نسبة إلى براندس قرية من قرى بغداد، وقد توفي سنة (٥٨٦هـ)، انظر ترجمته في «التكملة لوفيات النقلة»: ١/ ١٣١ و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٦٦-٣٦٨، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ٣٠٠-٣٠١.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) في (ع) و (ح): فكتب على حائطه لنفسه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) انظر «كتاب «الروضتين»: ١/ ٣٩٦.

(٥) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»» (خ) و (س): ٥/ ٦٦٣-٦٦٤، و«الجواهر المضية»: ٢/ ١٦٦-١٦٧.

تفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث، وكان إمام جامع النَّيْرب ـ قرية غربي دمشق ـ وكانت وفاته بها، سمع أبا طاهر الحِنَّائي وطبقته، وروى عنه أبو سعد ابن السمعاني وغيره، وكان فاضلاً ثقة][1].

وفيها توفي

الحسين بن علي بن القاسم[2]

ابن المُظَفَّر، أبو علي الشَّهْرُزُوري، قاضي قضاة المَوْصِل والجزيرة. كان عظيم الشأن، فاضلاً، قاضياً بالحقِّ، بعثه صاحب المَوْصِل إلى المقتفي في رسالةٍ، فتوقف الغَرَضُ الذي بُعث لأجله، فأقام ببغداد، وولاه المقتفي القضاء في إحدى جانبي بغداد مع أبي البركات الثقفي.

زُمُرُّد خاتون بنت جاولي[3]

أُخت الملك دُقاق لأمه [ابن تاج الدولة تُتُش بن ألب رسلان][1] وهي أمُّ شمس الملوك إسماعيل، وشهاب الدِّين محمود ابني بُوري بن طُغْتِكِين.

قرأت القرآن [على أبي محمد بن طاوس، وأبي بكر القرطبي، وسمعت الحديث من نَصر بن إبراهيم المقدسي وغيره][4]، وكانت محبةً للعلماء وأهل الخير، حنفية المذهب، وهي التي بنت مسجد خاتون على الشرف القبلي ظاهر دمشق بأرض صَنْعاء ووقفت عليه الأوقاف الكثيرة.

[وليست خاتون التي بنت خانقاه الصوفية على الشرف القِبْلي قريباً من القبلة، تلك بنت معين الدين أُنر زوجة نور الدين محمود بن زنكي، وتزوجها صلاح الدين، وسنذكرها بعد الثمانين وخمس مئة، ودفنت بجبل قاسيون، وهي التي بنت مدرسة خاتون بدمشق.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) له ترجمة في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٧٥، و«الوافي بالوفيات»: ١٤/ ٢١٣-٢١٤ ، «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦١ .

(٣) لها ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»» (خ) (س): ١٩/ ٤٢٤ (تراجم النساء: ١١٢) و«العبر» للذهبي: ٤/ ١٦٢، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٧٨ .

(٤) في (ع) و (ح): قرأت القرآن وسمعت الحديث، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وأما صاحبة هذه الترجمة فهي التي][1] ساعدت على قَتْلِ ابنها شمس الملوك إسماعيل، لما كَثُرَ فساده، وسَفْكُه للدِّماء، وقَتْله خواص أبيه، ومصادرات النَّاس، ومواطأة الفرنج على بلاد المسلمين، [فأراحت منه العباد، وطهرت منه البلاد، قال الحافظ ابن عساكر: دبرت عليه حتى قتل بحضرتها،][2] وأقامت أخاه محموداً مكانه [وقد ذكرناه][2].

وتزوجها أتابك زَنْكي طمعاً في دمشق، فلم يظفر بطائل، ونقلها إلى حلب، فلما قُتِلَ [أتابك][3] على قلعة جَعْبر عادت إلى دمشق، فأقامت مُدَّة، ثم حَجَّت على طريق العراق، ودخلت بغداد.

وعادت إلى الحج، فجاورت بمكة سنةً، ثم جاءت إلى المدينة، فجاورت بها حتى توفيت، ودُفِنَت بالبقيع، وكان قد قَلَّ ما بيدها [فبلغني أنها كانت][4] بالمدينة تغربل القمح والشَّعير، وتتقوَّت بأُجرتهما، وكانت كثيرة البِرِّ والصَّدقات والصِّلات، والصَّوم والصَّلاة، [رحمها الله تعالى][3].

صدقة بن وزير الواسطي[5]

[ذكره جدِّي في «المنتظم»، وقال:][6] دخل بغداد [ولبس الصوف][3]، ولازم التقشُّفَ زائداً على الحد، ووعظ، وكان يصعد المنبر، وليس عليه فرش، فأخذ قلوب العوام، وكان يميل إلى مذهب الأشعري، وعنده رِفْض.

[قال: وبلغني أَنَّه][3] لما مرض كان يُحْضِرُ الطَّبيبَ بالليل لئلا يقال عنه إنَّه يتداوى، وكان إذا جاءه فتوح يقول: أنا لا آخذ شيئاً، سَلِّموه إلى أصحابي. فَتَمَّ له ما أراد، وبنى

(١) في (ع) و (ح): ووقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وساعدت على قتل، وما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) في (ع) و (ح): قد قل ما بيدها، فكانت.. وما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٥) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٤-٢٠٥، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٠٦-١٠٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١١٢-١١٣، والبداية والنهاية (وفيات سنة ٥٥٧هـ)، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٢٩١-٢٩٢.

(٦) في (ع) و (ح): قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

رباطاً بقَرَاح القاضي، فاجتمع إليه جماعةٌ، وتوفي يوم الخميس ثامن ذي القعدة، وصُلّي عليه في ميدان الخيل داخل السُّور، ودفن في رباطه.

[وبنى يزدن لرباطه منارةً، وتعصَّب له، لأجل ما كان يميل إليه صدقة من التشيع، وصار رباطه مقصوداً بالفتوح، وفيه دفن، هذا صورة ما ذكر جدِّي في «المنتظم»][(١)].

وقال ابن الدُّبَيْثي: صدقة بن الحسين بن أحمد بن محمد بن وزير، أبو الحسن الواسطي، من أهل قرية خُسَّابور[(٢)]، كان أبوه من تُنَّائها[(٣)]، وبها ولد صدقة، فأَحبَّ الاشتغال بالعِلْم، والزُّهْد في الدنيا، فترك ما كان فيه، وصار إلى واسط، فحفِظَ القرآن وقرأ بالعشر قراءات، وتكلَّم في الوعظ، فصار له بها قَبولٌ كبير، وأخذ نفسه بالمجاهدة، والرِّياضة وإدامة الصَّوم، والعبادة[(٤)].

قال المصنِّف رحمه الله: حكى لي مَنْ أدركه ببغداد، أَنَّه كان من الأولياء الأفراد، أقام سنين لم يدخل حَمَّاماً، ويقطع نهاره صياماً، وليله قياماً. واتَّفق وعَّاظ العراق على ثَلْبه على المنابر، ورميه بالصَّغائر والكبائر، ولم يُنْقل عنه أَنَّه ذكر أحداً منهم بلفظةٍ، ولا ثَلَمَ مال مسلم ولا ثَلَبَ عِرْضه، وكلَّما وقعوا فيه قد زاد قبوله.

[ولقد حكى لي تلميذُه الشيخ مُصَدِّق النَّحْوي][(٥)] أَنَّه منذ دخل العراق إلى أن توفي لم يأكل من حِنْطَةٍ زُرِعَتْ بأرض بغداد، وإنَّما كان يُحمل إليه من غَلَّةِ واسط من مُلْكه ما يتقوَّتُ به، ولم يأكل من أوساخ أهل بغداد، وأقام عليه ثوب واحد ثلاثين سنة شتاءً وصيفاً ما غَيَّره. [وذكر مصدق عنه عجائب من زُهْده وورعه وأمانته وديانته][(٦)].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٤-٢٠٥، وترجمة يزدن فيه: ١٠/ ٢٤٢.

(٢) هي خسروسابور، والعامة تقول خسابور، وهي قرية قرب واسط. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٧١.

(٣) أي من أغنيائها. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٤١٠.

(٤) انظر «المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٠٧.

(٥) في (ع) و (ح): وقال مصدق النحوي تلميذه أنه منذ دخل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وانظر ترجمته مصدق في «المذيل على «الروضتين»»: ١/ ١٩٩-٢٠٠، بتحقيقي.

(٦) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

عبد الله بن علي بن أحمد[١]

ابن علي بن الحسن بن عبد الله بن فارس، أبو القاسم، الشاهد، الدِّمَشْقي، ويعرف بابن السيرجي.

وكان شيخاً صالحاً، ثقةً، أميناً، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتوفي بدمشق في ربيع الأول.

عَبد الرَّحمن بن مروان[٢]

ابن سالم، أبو محمد، التَّنوخي، المَعَرِّي، الواعظ.

قال العماد الكاتب: اجتمعتْ له الفصاحة والصَّباحة، ومواعظه مُبْكية مُضْحكة، وكلماته بالوَعد منجية، وبالوعيد مُهْلكة، إذا وعظ كانت عباراته أَرَقَّ من عبرات الباكين، وإذا أنشد كانت غُرره مثل ثغور الضَّاحكين، حَضَرْتُ مجلسه ببغداد، وشهِدْتُ محاسنه، فألفيته جوهريَّ الوقت، جَهْوَري الصَّوت، فهو كما قال الحريري: يقرعُ الأسماعَ بزواجر وَعْظِهِ، ويطبع الأسجاع بجواهر لفظه.

وكان شحاذاً، نتاشاً، حَوَّاشاً، قلما يخلو يوماً شَرَكُه من صيد، حتى لو رآه الحريري لم يذكر أبا زيد.

ورأيتُه قائماً يعظ في عزاء صدر الدين إسماعيل شيخ الصُّوفية ببغداد، وهو ينشد: [من المديد]

يـا أخِـلاَّئـي بـحـقـكُـمُ ... مـا بـقـي مـن بـعـدكـم فَـرَحُ
أيُّ صَـدْرٍ فـي الـزَّمـانِ لـنـا ... بـعـد صَـدْرِ الـدِّيـن يَـنْـشَـرحُ

---

(١) له ترجمة في مختصر «تاريخ ابن عساكر»» (اختصرته سكينة الشهابي على منهج ابن منظور): ١٣/ ١٤٥، وفيه وفاته سنة (٥٥٨هـ).

(٢) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»»: ١٠/ ١٨٢-١٨٣، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٩٢-٩٧، و«الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٢٦٦-٢٦٩، و«فوات الوفيات»: ٢/ ٣٠٠-٣٠١، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٧٨، ووفاته في «تاريخ ابن عساكر»» سنة (٥٥٩هـ)، وفي «الخريدة» سنة (٥٦٠هـ).

وأثرى ببغداد، وحسنت حاله، وكان مُغْرًى بالنِّسوان، وله قَبولٌ حسنٌ عند الجِسان، ومن شعره: [من مجزوء الرمل]

أفّ لـــلـــدنـــيـــا وأفّ كـــلُّ مـــن فـــيـــهـــا يَـــلُـــفُّ
مـــثـــل خـــيَّـــاطٍ حـــريـــصٍ كـــلـــمـــا شـــلَّ يـــكُـــفُّ[1]

وقال ابنُ عساكر: كان أبوه منجِّماً، رأيتُه يجلس على الطَّريق، وكان عبد الرحمن هذا ينشد على الطريق، وفي الأسواق على الدَّكاكين، وكان في صوته شجًى، وخرج عن دمشق وهو شابٌ، فغاب عنها مدَّة وعاد، وكان يعظ في الأعزية، ثم وعظ بعد ذلك على الكُرْسي، ورُزِق قَبولاً، واكتسب من الوعظ مالاً، ثم خرج إلى العراق، فأقام ببغداد مدة، وأظهر الزُّهد، وظهر له بها سوق، ثم رجع إلى دمشق، ووعظ، وصَعِدَ إليه يوماً إلى المنبر طفلٌ صغير، فأخذه على يده، وقال: [من الرجز]

هـذا صـغـيـرٌ مـا جـنـى صـغـيـرةً فـهـل كـبـيـرٌ يـركـب الـكـبـائـرا

فضجَّ المجلس بالبكاء.

وحضرنا عزاء المقتفي في جامع[2] وصدر المجلس القاضي أبو الفَضْل محمد بن عبد الله الشَّهْرُزُوري[3]، فرثى الخليفة بأبياتٍ، فَخَلَعَ القاضي عليه ثوبه، فتذكر عادته في الكُدْية، فخرج عما كان فيه من العزاء إلى استدعاء موافقة الحاضرين في خَلْع ثيابهم، فخلع بعضهم، فقال: أنا المُعَرِّي لا المعزي، وذكر أشياء فأضحك القوم، فلما خرجنا، قلتُ له: أخرجتَ العزاء عن معناه، وجعلته مضحكة، فقال بعضُ مَنْ أراد التقرُّب إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]. فقلت: لكلِّ مقامٍ مقال، وليس هذا موضعه. فسكت[4].

وكانت وفاته يوم الجمعة من رجب، ودفن بقاسيون.

---

(١) انظر «خريدة القصر»: ٢/ ٩٢-٩٦ .

(٢) أي في جامع دمشق.

(٣) هو المعروف بالقاضي كمال الدين الشهرزوي، وسترد وفاته سنة (٥٧٢هـ).

(٤) «تاريخ ابن عساكر»: ١٠/ ١٨٢-١٨٣ .

ومن شعره: [من الهزج]

ولـــمـــا أصـــبـــح الـــوصـــلُ صـــحـــيـــحـــاً مـــا بـــه داءُ
أتـــى الـــهَـــجْـــرُ فـــلا مـــيـــمٌ ولا راءٌ ولا حـــــــــــاءُ
ولا بـــــاءٌ ولا ســـــيـــــنٌ ولا هـــــــــــاءٌ ولا لاءُ

يعني لا مرحباً ولا سهلاً بالهجر[1].

[عَدِي بن مسافر][2]

قلتُ: ذكر قاضي القضاة شمس الدين ابن خَلِّكان ـ رحمه الله ـ في «وفيات الأعيان»[3]:

الشيخ عَدِي بن مسافر، الهَكَّاري مسكناً، العبد الصَّالح المشهور، سار ذكره في البلاد، وتبعه خَلْقٌ كثير، وجاوز حسنُ اعتقادهم فيه الحدَّ، وجعلوه ذخيرتهم في الآخرة، وكان قد صَحِبَ جماعةً من أعيان المشايخ والصُّلحاء، ثم انقطع إلى جبل الهكَّارِيَّة من أعمال المَوْصِل، وبنى له هناك زاويةً، ومال إليه أهل تلك النَّواحي كلها ميلاً لم يُسْمع بمثله.

وكان مولده في قرية يقال لها بيت فار من أعمال بَعْلَبَك، والبيتُ الذي ولد فيه يزار إلى الآن، وتوفي سنة سبع، وقيل: خمس وخمسين وخمس مئة، ودفن ببلده بزاويته، وقبره عندهم من المزارات المعدودة، وحَفَدَتُه بموضعه يقتفون آثاره والنَّاسُ معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد، وتعظيم الحُرْمة، وكان مُظَفَّر الدِّين صاحبُ إِرْبل يقول: رأيتُ الشيخ عدي بن مسافر، وأنا صغير بالمَوْصِل، وهو شيخٌ، رَبْعَةٌ أسمرُ اللَّون، وكان يحكي عنه صلاحاً كثيراً، وعاش تسعين سنة.

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٩٧ بغير هذا الترتيب.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح، وهذه الترجمة مما زاده القطب اليونيني على «مرآة الزمان»، يدل على ذلك أن ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان»: قدم دمشق سنة (٦٥٩هـ)، أي بعد وفاة السبط بخمس سنين، وفيها عين قاضياً للقضاة، وتوفي سنة (٦٨١هـ)، يعني بعد وفاة السبط بسبع وعشرين سنة، ولم يكن ابن خلكان سنة وفاة السبط قد فرغ بعد من تأليف كتابه، انظر الدراسة القيمة عن ابن خلكان للدكتور إحسان عباس في الجزء السابع من «وفيات الأعيان»: ص ٤٠ ، ٦٦. وانظر «المذيل على «الروضتين»: ٢/ ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٣) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٥٤-٢٥٥، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٤٢-٣٤٤، و«الكواكب الدرية»: ٢/ ٢٦٨-٢٦٩ ، وفيهما تتمة مصادر ترجمته.

قلتُ[١]: وقد وقعتُ على مجموعٍ فيه أخباره، وهو للشيخ شرف الدِّين أبي الفضائل: عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان ابن الحكم بن مروان الأُموي[٢]، استوطن لالش من جبل الهَكَّار إلى أن مات بها سنة ثمانٍ وخمسين وخمس مئة، ودفن بزاويته، وقبره بها ظاهرٌ يزار، وكان عالماً، فقيهاً، صالحاً ظريفاً، متواضعاً، حسنَ الأخلاق مع كثرة الهيبة، وهو أحدُ أركانِ الطَّريقة، وأعلام العلماء بها، وسَلَكَ في المجاهدة وأحوال البداية طريقاً صَعْباً، بعيداً، عزيز المنال، تعذَّر على كثيرٍ من المشايخ سلوكه، وكان سيِّدُنا شيخ الإسلام محيي الدِّين عبد القادر ينوِّه بذكره، ويُثْني عليه كثيراً، وشَهِدَ له بالسَّلْطنة، يعني على الأولياء. وقال: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر.

وكان في أول أمره في الصَّحارى والجبال، مجرداً سائحاً، يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات مدَّةً مديدة، وكانت الحَيَّات والسِّباع تألفه فيها، وتتلمذ له خَلْقٌ كثير من الأولياء، وتخرَّج بصحبته غيرُ واحد من ذوي الأحوال، وانتمى إليه عالمٌ عظيم، وكان له كلامٌ نفيس على لسان أهل الطَّريق.

ومن كلامه في توحيد الباري عَزَّ وجل: لا تجري ماهيته في مقال، ولا تخطر كيفيته ببال، لا مثل الأشكال، صفاته قديمة كذاته، ليس جسمٌ في صفاته، جَلَّ أن يشبهه بمبتدعاته، أو أنْ يضاف إلى مخترعاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا سميَّ له في أرضه وسماواته، ولا عديل له في حكمه وإرادته، حرام على القلوب أن تَمثَّلَ الله تعالى، وعلى الأوهام أن تحدَّه، وعلى الظنون أن تقطع وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى النفوس أن تفكر، وعلى الفكر أن يحيط، وعلى العقول أن تصور إلا ما وصف به ذاته في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

ومنه: أول ما يجب على سالك طريقنا هذه ترك الدعاوى الكاذبة، وإخفاء المعاني الصادقة.

---

(١) أي القطب اليونيني، مختصر «مرآة الزمان».

(٢) كذا في (ع) و (خ)، ولعله الحكم بن أبي العاص.

وقال إسرائيل بن عبد المقتدر: أقمتُ مدَّة ثلاث سنين سائحاً مجرداً في جبل الهَكَّار، وجبل لبنان وجبال العراق والعجم، وكانت الأحوال تطرقني، فأَخِرَّ لوجهي، فَتَسْفي عليَّ الرِّياح إلى أن ترى فوق جِلْدي جِلْداً آخر من الوسخ، فجاءني ذئب ونظر إليَّ متبسماً، ولَحِسَ جِلْدي كله حتى تركه كالجُمَّارة[1]، فتداخلني العُجْب، فإذا هو قد شَزَرني مُغْضَباً، وبال عليَّ، فأتيتُ إلى عين ماء، فاغتسلتُ، ودخلتُ قُبَّة في وسط الصحراء، بيني وبين النَّاس مسيرة عشرة أيام من كل قطر، ولا يمرُّ بي أحد، ولا أسمع صوتَ أحد البتَّة، فقلتُ في نفسي: لو قيَّضَ الله لي بعضَ العارفين. فإذا الشيخ عدي ابن مسافر إلى جانبي، ولم يُسَلِّمْ عليَّ، فأرعدت من هيبته، وقلتُ في نفسي: ولِمَ لَمْ يُسَلِّمْ علي؟ فقال لي: إنا لا نلتقي بالسَّلام والترحاب من تبول عليه الذِّئاب. ثم ذكر لي جميعَ ما جرى لي في سياحتي، وواجهني بجميع خواطري، وبكلِّ شيءٍ اختلج في سِرِّي، وأضمره قلبي، واقعة واقعةً، حتى ذكَّرني بأشياء أُنْسِيْتُها. فقلتُ له: يا سيدي، أشتهي الانقطاع في هذه القُبَّة، فلو كان عندي ما أشرب منه وما أقتاتُ به. فقام إلى صخرتين كانتا في تلك القُبَّة، ووكز إحداهما برجله، فانفجرت منها عينُ ماءٍ حُلْو عَذْب من ماء النِّيل، ووكز الأُخرى، فنبتَتْ فيها شجرة رُمَّان، وقال لها: أيتها الشجرة أنا عدي بن مسافر، أَنْبتي بإذن الله تعالى يوماً رُمَّاناً حُلْواً ويوماً رماناً حامضاً. وقال لي: أقم هنا، وكُلْ من هذه الشجرة، واشرب من هذه العين، وإذا أردتني اذكر اسمي آتك.

فأقمتُ في تلك القبة سنين، فكنت آكل من تلك الشجرة يوماً رُمَّاناً حُلْواً، ويوماً حامضاً، أحسن رمان في الدنيا وأطيبه، وما ذكرتُه قَطُّ إلا وجدتهُ حاضراً عندي، وينبئني بما يختلج في صَدْري في مُدَّة غيبته عني، ثم بعد سنتين أتيت إلى بلالش، وبتُّ عنده ليلة، فأحرقني بأنفاسه، ومكثت أربعين يوماً أصبُّ عليَّ الماء البارد كل يوم، وإني لأَجِدُ النَّار الشديدة في باطني، من هَبَّة أنفاسه.

---

(١) يعني جمارة النخل، وهي شحمته التي في قمة رأسه، تقطع قمته، ثم تكشط عن جمارة في جوفها بيضاء كأنها قطعة سنام ضخمة، وهي رخصة تؤكل بالعسل «اللسان» (جر).

وقد شبه جلده بها لبياضها، ولكن لا يوصل إليه إلا بالكشط، والله أعلم.

قال: وودَّعْتُه مرةً مسافراً إلى عَبَّادان، فقال لي: إذا رأيت سَبُعاً تخاف منه، فقل له: يقول لك عدي بن مسافر اذهب ودَعْني، وإذا رأيت هولَ البحر، فقل: أيتها الأمواج المتلاطمة يقول لك عدي بن مسافر اسْكُني بإذن الله. فكنتُ إذا لقيت شيئاً من الوحوش، قلت: يقول لك الشيخ عدي بن مسافر اذهب وَدَعْني، فينكِّس رأسه، ويذهب. ولما اشتدَّ علينا البحر، وأشرفنا فيه على الغرق، قلتُ ما أمرني به، فما تمَّ كلامي حتى سكن الريح، وصار كأنه عين ديك.

وقال الشيخ عمر بن محمد: خدمتُ الشيخ عدي بن مسافر سبع سنين، شَهِدْتُ له فيها خارقات في نفسي، إحداها أنني صببتُ على يديه ماء، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أُريد تلاوة القرآن، فإني لا أحفظ منه سوى الفاتحة وسورة الإخلاص، وحِفْظُه عليَّ عسيرٌ جداً. فضَرَبَ بيده في صدري، فحفظت القرآن كلَّه في وقتي، وخرجتُ من عنده، وأنا أتلوه بكماله، لا تتوقف علي منه آية واحدة، وأنا إلى الآن من أجودِ النَّاس تلاوةً له، وأقدرِهم على دَرْسه.

وقال لي يوماً: اذهب إلى الجزيرة السَّادسة من البحر المحيط تجدْ بها مسجداً، فادْخُلْه تَرَ فيه شيخاً، فَقُلْ له: يقول لك عدي بن مسافر احذرِ الاعتراض، ولا تختر لنفسك أمراً لك فيه إرادة. فقلتُ: يا سيدي وأنَّى لي بالبحر المحيط؟ فدفعني بين كتفي، وأنا بظاهر زاويته بلالش، فإذا بجزيرةٍ بالبحر المحيط، فلا أدري كيف جِئْتُ، فدخلت المسجد، فرأيتُ شيخاً مهيباً مفكِّراً، فسلَّمْتُ عليه، وبَلَّغْتُه الرِّسالة، فبكى وقال: جزاه الله خيراً. فقلتُ: يا سيدي وما هذا؟ فقال: يا بني إنَّ أحد السبعة الخواص في النَّزْع الآن، وإني طَمَحَتْ بي إرادتي أن أكون مكانه، وإنَّ خطرتي لم تكمل في نفسي حتى أتيتني، وقد جئتَ إليَّ وأنا مفكر في ذلك. فقلتُ: يا سيدي، وأنَّى لي بالوصول إلى جبل الهَكَّار؟ فدفعني بين كتفي، وإذا أنا بزاوية الشيخ عدي، فقال لي: هو من العشرة الخواص[1].

(١) الله أعلم بصحة هذه الأخبار، وفي صحتها في النفس أشياء.